كشكشول الشهر إنْ تَوَجَّب، عبر جدليّة مُخَاتِلَةٍ، أنْ يكون في النص — مُخرّب كلّ ذاتٍ — ذات ينبغي الوقوع في حبّها، فإنّها ذاتٌ مبعْثرةٌ. فيما يشْبه قليلاً الرّماد الذي تُذَرّيه الرياح بعد الموت (إزاء موضوعتي حُقِّ الرّماد والمسلّة التّذْكاريّة، باعْتبارهما جسمين قويّين، مغْلقين، مَعْلَمَينِ لِلْقَدَر، يمْكننا وضْع شظايا الذّكْرى، التّأكل الّذي لا يتْرك من الْحياة الْماضية إلّا بضع ثنياتٍ)؛ لو كنْت كاتبًا وميّتًا، كمْ سأحبّ أن تخْتزل حياتي، بعناية كاتب سيرة ودود ومرح، في بضعة أذواقٍ، بضعة نزوعات، لنقل بضع «تفصيلاتٍ سيريّة» biographèmes، سيكون لفرادتها وحركيّتها أن تسافرا خارج كلّ قدرٍ وأنْ تأتيا لتلامسا، على طريقة ذرّات أبيقور، جسد أمسْتقْبليّا ما، منْذور للنفس البعثرة. حياة منْقوبة، في مجملها، مثلما أدرك بروست كيف يكتب حياته في مؤلّفاته. (رولان بارت: «ساد، فوريي، لويولا»، ضمن الأعمال الكاملة، المجلد 3، منشورات سوي، 1980، ص. 1405، ترجمة: ر.و.)
يعرف محمد الشّرْكي كيف يلتقط لُهُبَ التفصيلة السيرية حد ثاً وشكلاً. هو القادم من تكوين فلسفي رصين، أكاديميًا وقراءاتٍ شخصية، صائغ السرد في نثر فني متفرد (انظر مفتتح يَتِيمَتِهِ الروائية في هذا الملف)؛ القادم من مُثَاقَفَةِ الصنعة

محمّدْ الشّرْكي: مقاطع الدّفتر

إدمون عمران المالح وزوجته ماري سيسيل ديفور

في فترة ترجمتي لـ «المجرى الثابت»، دعاني الراحل إدمون عمران المليح إلى زيارته بالصّويرة لقضاء بضْعة أيام برفقته وزوجته الراحلة ماري سيسيل، حيث كانا يقيمان في رياض الفنان التشكيلي الحسين الميلودي في زنقة الخضر غيلان. لمّا دخلنا الرياض، استرعت انتباهي جرّة كبيرة الحجم تتوسّط الحديقة الصغيرة الداخليّة. سألت ماري سيسيل عنها فأخبرتني أنهما جلباها، هي وإدمون، من خُميس الزمامرة على متن سيارتهما الصّغيرة ليهْدياها إلى الموضع الذي رأيتها فيه. قلت لها: «هل تعلمين أنّها تشبه تماماً خابية الموتى المصرية التي كان الكهنة المحنّطون يضعون فيها أحشاء الفرعون خلال طقوس التحنيط؟ كانوا يستعملون أربع خواب مختلفة الأغطية، وكلّ واحدة منها مكرّسةٌ لإحدى القوى الْإلهيّة وإحدى الجهات الأربع، فكانت خابية الجنوب مكرّسةً لإيزيس وتحفظ الْكبد، وخابية الشّمال لتفتيس وتحفظ القلب، وخابية الشّرق تحت حماية نيثْ وتحفظ الأمعاء، وخابية الغرب تحت شفاعة سلقيس وتحفظ الرّئتين.. «استمعت إليّ ماري سيسيل باهْتمامٍ عميقٍ وقالت لي: «شكراً لأنّك منحْت هذه الخابية زمناً آخر غير مسْموع».

كاتب ياسين: «نريد سيدة هذه البلاد»

بعد مرور أكثر من خمس وعشرين سنة على مغادرته زمن الأرض، يظلّ المبدع الجزائري العميق كاتب ياسين اسماً مفصليّاً حقّق امتداداً عربيّاً وعالمياً بروايته الفخمة والأليمة والمتوهّجة «نجمة»، المستحقة لهذا الاسم العميق والمضيء. هو الذي جنّت أمّه لاعتقادها أنه قتل في مظاهرات سْطيف (1945)، فيما كان معتقلاً وعمره لا يتجاوز ست عشرة سنة، سيتاح له بعد خروجه من السجن أن يعثر في الحبّ الكبير لفتاة من قريباته على الخميرة الكيانية التي تفاعلت مع الثورة المفتوحة وأنضجت دواخله. مثله مثل نجمة التي تخلّقت بذرتها في إحدى المغائر، تخلّق هو ككاتب ثائر داخل عزلة اللغة الفرنسية نفسها، خائضاً حرباً قبائلية عميقة بين أجراف كلماتها، ومنجزاً ثورة رمزية داخل الثورة التاريخية. لأنه أدرك أن الاجتثاث المنهج للرّموز الهوياتية، الذي كان يمارسه (ولا يزال بصورة أشدّ وأفتك) النظام الاستعماري وآلياته الجبّارة ومرتزقته المحلّيون المنتفعون به، أخطر وأكثر تدميراً — في مقياس التاريخ الطويل — من قتل الأجساد ودكّ المدن، لأنّ الرّمز هو الأساس الكياني الذي ترتكز عليه الحيوات الفردية والجماعية، وتنهض عليه المجالات جميعها، ويشعل الضوء في ليل المعنى. من جهة هذا التورّط الغائر، ينبغي قراءة صرخته في أحد نصوصه الشعرية: «نريد سيدة هذه البلاد/ وليس خليلاتها».

غارثيا لوركا: أريد أن أنام نوم التّفاح..

كأنه أحد الأجساد المجندلة، الصارخة بملء أفواه الحياة المغْدورة بالموت، في الأسفل المدلهم للوحة غرنيكا لبيكاسو. لأنّ السّياق التّاريخي المروّع الذي أمسكت به هذه اللوحة القيامية وحفرته بالخطوط والألوان على جدار الزمن هو نفسه الذي ألقى بفديريكو غارثيا لوركا من علياء حلمه إلى الإسفلت البارد لسنة 1936 الوخيمة. كانت حياته تتدلّى يانعةً منْ شرفة ربيعه الثامن والثّلاثين حين اعتقله زبانية الدكتاتور فرانكو بتهمة موالاته للجمهوريّة وأعدموه رمياً بالرّصاص على التّلال القريبة من غرناطة، دون أن يتمّ العثور لاحقاً على جثمانه البرّي، تماماً كما تنبّأ بذلك قلبه الغجري المستبصر حين كتب في إحدى قصائده: «وعرفت أنّني قتلْت/ وبحثوا عنْ جثّتي في المقاهي والمدافن والكنائس/ فتحوا البراميل والخزائن/ سرقوا ثلاث جثث/ ونزعوا أسنانها الذّهبيّة/ ولكنّهم لم يجدوني قط». لوركا، الشّاعر والكاتب المسرحي، مبدع «حكايات غجرية»، و«عرس الدم»، و«بيت برناردا ألْبا»، هو الروح الخضْراء، الاحتفالية والتراجيدية معاً، للأندلس العميقة بزيتونها المقدس، وأقمارها المدوّخة، وقيثاراتها المثيرة للأوجاع العالية، ومصارعي ثيرانها بين حافات الحياة والموت. لذلك، لم يكن غريباً أن تخذله نيويورك بناطحاتها الجليديّة وفولاذها المتعملق وصخبها غير البشريّ، وأنْ يقفل عائداً إلى وطنه الزاخر بالرّوح الملحميّة والمفاتن المتوسّطية ذات السطوة الوقّادة، وطنه حيث يرقد الآن، كفتى أسطوري، في سرداب مجهول تنفلت منه كلّ ليلة كلماته التّالية: «أريد أنْ أغْفو برهةً/ برهةً، دقيقةً، دهراً/ لكن ليعْلم الجميع أنّي لست ميّتاً/ وأنّي أحمل بيْن شفتيّ إسطبلاً من ذهب/ لأنّي أريد أنْ أنام نوم التّفاح».

فاطمة المرنيسي: «رسالة شهرزاد هي أن السّحر بداخلك»

لأنّ فاطمة المرنيسي لم ترحل، آثرت ألا أكتب عنها عند وفاتها الفيزيائيّة. رغبت في أن أنأى بالكلمات عن النبرة الجنائزية التي كانت ستصطبغ بها حتماً، فيما هي تتوجّه إلى عالمة اجتماع زاخرة، وأستاذة أجيالٍ مقتدرة، وسيّدةٍ جليلة صاخبة بالحياة. لا يمكن تأبين ابنة الحياة، خاصّة أنّ أغلب التّأبين، في المسلكيّات الثقافية والسياسية على السواء، تبرئة للذمة، وسعْي غاشم إلى الاستعادة القسْريّة لوجوهٍ كبيرةٍ حرّرها الموت ليلحقها بأعمارها الثانية التي لا تنتهي. لذلك تنفلت فاطمة المرنيسي من كلّ اسْترداد لتبقى منطلقةً وجامحةً وغير مهادنةٍ، تماماً كالأسئلة الحارقة والحفريّات الشاهقة التي أنجزتها في أراض ممنوعةٍ ومدجّجةٍ بأعتى الرّقابات البطريركيّة، ولتظلّ أعمالها الغزيرة كاشفةً آليات «الجنس كهندسةٍ اجتماعيّة»، ومضيئةً قامات «السلطانات المنسيّات»، ورافعةً الحجاب عن «الحريم السياسي في الإسلام» وعن «الحريم في الغرب»، غير مبالية بالطّلقات التحذيريّة والرشقات المباشرة التي وجّهها لها حرس الأنساق والحدود، لأنّ «الحدود خط وهْميّ في رؤوس المحاربين» على حدّ قولها، هي التي كتبتْ أنّ «الكرامة هي أنْ يكون لك حلم... حلم قويّ يمنحك رؤْيا وعالماً لك مكانك فيه»، وأنّ «رسالة شهرزاد هي أنّ السّحْر بداخلك». أذْكر أوّل لقاء لي بها منذ سنوات بعيدة، في سياق عشاءٍ ثقافي، حيث شاءت الصّدفة - التي غالباً ما تكون تمظهراً لقانونٍ عميق - أن نجلس متجاورين إلى المائدة. وإذا بها تفاجئني، بكلّ تلقائيّةٍ ونبْل، بأنّها أعجبت بنصٍّ لي كنت نشرته قبل أيّام أجبت به عن سؤالٍ وجّهته جريدة الاتحاد الاشتراكي إليّ وإلى بعض الأسماء الإبداعيّة حول «علاقة الكتابة الأدبيّة بالأمّ». وما لبثت أن لاحظت أنّنا قلّما نأكل، فسألتني إن كنْت أكلْت شيئاً قبل مجيئي، ولمّا أجبْتها بالإيجاب، قالت لي ضاحكةً: «أنا أيْضاً أكلت قبل مجيئي.. إيّاك أن تأتي إلى مثل هذه المآدب قبل أن تأكل قليلاً.. لا تنس هذا أبداً». لم أنس هذه الوصيّة أبداً، لأنّني لا أنْسى الوصايا المهْداة من طرف الوجوه العميقة السّاهرة من عيار وجه فاطمة المرنيسي.

سيرة موجزة

1958: الميلاد في مدينة فاس.
1980: إجازة في الفلسفة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في فاس.
1987: العشاء السفلي (رواية . 2001 كهف سهوار ودمها (شعر)، 2006: الحبق والعتبات (دفتر ملحوظات نقدية) . 2007: السراديب (شعر).
* ترجمات: الطاهر بن جلون: ليلة القدر (1987) . جورج أوفيد: اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية، ج1 (1987)؛ ج2 (1988) . عبد اللطيف اللعبي: تجاعيد الأسد (1989) ـ محمد العلوي البلغيثي: فاس مقام العابرين (1990) . الطاهر بن جلون: طفل الرمال (1992) ـ إدمون عمران المالح: المجرى الثابت (1993)، زكية داود: عبد الكريم: ملحمة الذّهب والدّم (2007). تشكّل ترجمات محمد الشركي هجرةً شبه كاملة للنصوص الأعجمية نحو جذورها العربية، توطيناً للنص الفرنسي في تربته العربية، في لغةٍ شفيفة موقّعةٍ، حدّ غيرة الطاهر بن جلون على نصه الفرنسي من صنعة الشركي العربية.